الباب الثانى

الفتح الإسلامى

القدس وعمر بن الخطاب — القدس وبنو أمية — القدس وبنو العباس
القدس وبنو طولون — القدس وبنو الإخشيد — القدس الفاطمية
القدس والأتراك السلجوقيون — القدس والأرتقيون

القدس وعمر بن الخطاب

(١٥ هـ — ٦٣٦ م)

ليس بمستغرب أن يفكر المسلمون فى فتح البيت المقدس ، وهو البيت الذى ورد ذكره فى قرآنهم ، وعلى لسان نبيهم ، وفى أحاديث صحابتهم وأئمتهم وأعلامهم . ولقد كانوا مدفوعين لهذا الفتح بعوامل عدة : منها ما هو دينى ومنها ما هو اقتصادى ، وإن شئت فقل حربى واستراتيجى .

فقد أسرى بالنبى المصطفى عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . . » وما كان النبى ليسرى إلى هذا البلد الأمين لولا أنه كان يعلم علم اليقين أنه عرق الجزيرة النابض وقلبها الخفاق ، وأنه لا حياة للعرب فى جزيرتهم إذا لم تكن تخومها الشمالية محمية ، ولم يكن هذا البلد فى حوزتهم . وهذا فى نظرى ، هو سر الإسراء . . .

ورد فى الحديث الشريف : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى . »

وروى عن الإمام على بن أبى طالب أنه قال : « وسط الأرضين أرض بيت المقدس . وأرفع الأرض كلها إلى السماء بيت المقدس » .

وعن أبى هريرة أنه قال : « من مات فى بيت المقدس ، فكأنما مات فى السماء » . وعنه أيضاً أن النبى قال : « أربع مدائن من الجنة ، مكة ، والمدينة ، ودمشق ، وبيت المقدس » .

لم يكتف النبى بهذا الأسلوب من التشجيع على فتح بيت المقدس . فقد أردف القول بالفعل . وراح يحث قومه على غزو الروم . فقال : لهم ، « أيها الناس ، إنى أريد الروم » . ولكن المنية فاجأته ، قبل أن يدرك غايته . فأكمل أبو بكر الصديق وصيته . وراح هذا يستفز العرب من أجل فتح الشام كلها ، وليس البيت المقدس وحده . وقد جهز لهذه الغاية أربعة جيوش عقد ألويتها لأربعة من كبار القواد ، هم :

عمرو بن العاص[1]	فلسطين
شرحبيل بن حسنة	الأردن
يزيد بن أبى سفيان	البلقاء
أبو عبيدة بن الجراح	دمشق

ولا نريد أن نذكر هنا ما الذى فعله كل واحد من هؤلاء القواد ، لأن ذلك خارج عن نطاق هذا الكتاب . وإنما نريد أن نذكر أن المسلمين بعد أن غلبوا الروم فى اليرموك وفتحوا الشام ولوا وجوههم شطر فلسطين . فتولى أبو عبيدة ابن الجراح حصار إيلياء ، وراح عمرو بن العاص يفتتح المدن الفلسطينية الأخرى . وكان أبو بكر الصديق قد انتقل إلى دار البقاء وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب .

وفى قول إن عمر بن الخطاب هو الذى أوعز إلى أبى عبيدة بن الجراح أن يزحف إلى إيلياء . فلبى أبو عبيدة أمر الخليفة ، واستدعى سبعة من مقاديم الجيش . فعقد لكل منهم راية ضاماً إليه خمسة آلاف مقاتل بين فارس وراجل وأمرهم بالمسير إليها .

فى اليوم الأول سار خالد بن الوليد ، وفى اليوم الثانى تبعه يزيد بن أبى سفيان . ثم شرحبيل بن حسنة . فالمرقال بن هاشم . فسيبه بن نجبة الفزارى .

(١) (فتوح الشام) للواقدى (وتاريخ ابن خلدون) ج ٢ ص ١٠٥ .

فقيس بن المرادى . فعروة بن مهلهل بن زيد الخيل . وكان جملة من سار من الشام ، إلى إيلياء سبع فرق ، مجموع أفرادها خمسة وثلاثون ألفاً . كلهم فرسان نشيطون ، ورجال ماهرون فى الفروسية . وما عرف التاريخ أصبر منهم على الجوع والعطش والمشى . . . كان مبدأهم فى الحروب .

« لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » . « لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »

وجاء من وراء الجيش قائده أبو عبيدة . ولما حل ركبه فى الأردن بعث إلى أهل إيلياء الرسل مزودين بالإنذار التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطاركة أهل إيلياء وسكانها . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول ، أما بعد : فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . فإن شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم ، وكنتم لنا إخواناً . وإن أبيتم فأقروا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وإن أنتم أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حباً للموت منكم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير . ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله أبداً حتى أقتل مقاتليكم وأسبى ذراريكم » .

انقضت الأيام الأربعة الأولى من غير حرب . ولم يتلق المسلمون جواباً من الروم على إنذارهم . وفى اليوم الخامس اقترب يزيد بن أبى سفيان من السور ، وكلم المحاصرين ، فخيرهم بين التسليم أو دفع الجزية أو القتال . فرفضوا الشرطين الأولين واختاروا القتال . وكتب يزيد إلى أبى عبيدة مخبراً عما جرى فأصدر هذا أمره بالزحف . وكان أول من برز للقتال بنو حمير ورجال اليمن فتلقاهم الروم بالنبال . ثم جاء الآخرون . ونشبت معارك طاحنة دامت عشرة أيام . وفى اليوم الحادى عشر أشرفت راية أبى عبيدة وفى رفقته عبد الرحمن بن أبى بكر ونفر من المجاهدين الأبطال . فاستقبله المسلمون بالتهليل والتكبير . ودب الرعب

فى قلوب الروم . ودام الحصار أربعة أشهر لم ينقض يوم واحد منها دون قتال . إلى أن قنط السكان . وحل بهم الضنك والجوع . فرأوا التسليم . إلا أنهم اشترطوا ألا يسلموا المدينة إلا إلى شخص الخليفة . فوافقهم أبو عبيدة ، وأمر جنده بالكف عن القتال .

أرسل أبو عبيدة إلى الخليفة كتاباً مع رسول يخبره بما جرى . وبعد أن استشار عمر بن الخطاب أهل الحل والعقد من المسلمين فى الأمر ، غادر المدينة ميمماً بيت المقدس . ولما وصل إلى المخيم الذى كان يرابط فيه المسلمون على مقربة من السور ، وفى قول على جبل الزيتون ، استقبله المسلمون بخيلهم ورماحهم وقد اصطفوا لاستقباله فى صفوف متراصة ، راكبين خيولهم متقلدين سيوفهم شارعين رماحهم[1] يهللون ويكبرون . وكان هو على قلوص[2] لابساً سلاحه . متنكباً قوسه . ولم يكن معه سوى عبده . وبعد أن استراح قليلا قص عليه أبو عبيدة الخبر اليقين ، عما جرى مذ افترقا إلى ذلك الحين . أمر الخليفه من فوره أن يبلغوا البطريرك قدومه . ففعلوا . وجاء البطريرك بعد قليل حاملا الصليب المقدس على صدره . وجاء معه عدد من الأساقفة والقسيسين والشمامسة والرهبان حاملين الصلبان . ولما انتهوا إلى مقام الخليفة خف للقائهم . وتقبلهم بمزيد الاحتفاء والإكرام . ثم تحادثوا فى شروط التسليم . وكتب لهم وثيقة الأمان التالية وقد عرفت بالعهدة العمرية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان :

« أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ،

---

(١) (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير . ص ١٩٤ — والقلوص من الإبل صغير السن .

ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب سنة ١٥ للهجرة » .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

وكما أن عمر بن الخطاب أعطى أهل إيلياء العهد الذى تقدم ذكره ، فقد أخذ عليهم أيضاً عهداً . ولقد جاء فى عهدهم هذا ما يلى :

« هذا كتاب لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من نصارى مدينة إيلياء . . . . . إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا . وشرطنا لكم أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية[1] ولا صومعة راهب .

ولا نجدس منها ما كان فى خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل . وأن ننزل من مرّ من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نوارى فى كنائسنا ولا فى منازلنا

(١) معناها مسكن الأسقف .

جاسوساً ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر مشركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أراده . وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه فى شىء من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية . ولا نبيع الخمور . وأن نجز مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيثما كنا . وأن نشد زنانير على أوساطنا ولا نظهر الصليب على كنائسنا . ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا فى أسواقهم . ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين . ولا نطلع عليهم فى منازلهم » .

بعد أن تعاطى الفريقان العهود والأيمان على النمط المتقدم ذكره دخل عمر ابن الخطاب إيلياء (١٥ هـ — ٦٣٦ م) . فاستقبله صفرونيوس ودخل من وراثه المسلمون . دخلوها مكبرين مهللين . وقيل إن عدد من دخل منهم يومئذ أربعة آلاف . وقد كانوا متقلدين سيوفهم . وراية العرب ترفرف فوق رؤوسهم .

كان أول عمل قام به عمر بعد فتحه بيت المقدس أن زار كنيسة القيامة . ولما كان فى داخلها حان وقت الصلاة . فأشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلى فى داخل الكنيسة قائلا (مكانك صلّ) . ولكن عمر أبى ، وخرج من الكنيسة ، وصلى فى مكان على مقربة منها ، خشية أن يتخذ المسلمون صلاته فى داخل الكنيسة ذريعة فيضعوا أيديهم عليها . فقابل النصارى عمله هذا بالشكر . وذكره المؤرخون بالتقدير .

ثم زار عمر مكان الهيكل . وكان هذا فى حالة خراب . تجمعت فيه الأقذار فأصبح عبارة عن مزبلة . فراح يحفن التراب وينحضه بكفيه وحذا الصحابة

الذين كانوا معه حذوه . فراحوا ينظفون المكان وبرزت الصخرة . وأمر عمر أن يبنى هناك مسجد . فبنى المسجد ، وكان من خشب (٦٣٧ م) .

بعد أن انتهى عمر من زيارة هذين المكانين : القيامة والصخرة راح يتجول فى شوارع المدينة ، ويغشى أسواقها . وكانت هذه لا تزال تئن من الخراب الذى أحدثه الغزو الفارسى (٦١٤ م) . فرأى بعين ثاقبة أن يبدأ بالتنظيم الإدارى والقضائى أولا ، فلم يتوان . ففرض للمسلمين الفروض ، وأعطى العطايا . ثم وضع التاريخ الهجرى ، ودون الدواوين . وقسم البلاد إلى مناطق . وعين لكل منطقة أميراً . ثم رتب البريد ليؤمن الاتصال بين هذه المناطق ، وأقام العيون (الاستخبارات) . وعين قاضياً (مفتشاً) يطوف على المأمورين . ويحقق الشكايات . وأسس الحسبة (البلدية) لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتها ، ولمنع الغش ، وتنظيف الأزقة ، وشر الكنف ، والرفق بالحيوان . وهدم البناء المحدث فى وسط السوق . وحظر على الناس الازدحام فى الطرق . وحضهم على التجارة قائلا : «لا تلهكم الرياسة وحبها . ولا يغلبنكم الغرباء على التجارة . فإنها ثلث الإمارة» .

وبينما كان عمر يتفقد المدينة ويبحث شؤونها وما أصاب سكانها من حيف وضيم أثناء الفتح ، أتاه رجل من النصارى له ذمة مع المسلمين فى كرم عنب . فشكا إليه همه ، فركب معه . ولما رأى أن فريقاً من المسلمين أكلوا ما فى الكرم لشدة ما أصابهم من جوع ، أعطاهم ثمن ما أكلوه . وقد أمر رجاله بالعدل ، قائلا لهم : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وذكر المؤرخون أن عمر زار قبيل رحيله عن بيت المقدس أبا عبيدة بن الجراح فى بيته . فلم يجد فيه سوى لبد فرسه (وكان هذا هو فراشه وسرجه ووسادته) وكسر يابسة فى كوة بيته ، ولما دخل عمر جاء بهذه الكسر ، فوضعها على الأرض بين يديه . وأتاه بملح جريش ، وكوز من الخزف فيه ماء . فلما نظر عمر إلى ذلك بكى .

وبعد أن رتب عمر الأمور ، ووضع كل شيء فى نصابه ، اعتزم الرجوع إلى المدينة ؛ وقبل أن يغادر بيت المقدس ، جمع جنده ، فأثنى على عملهم . وشكر الله إذ صدق وعده ونصر جنده . وأورثهم البلاد . ومكن لهم فى الأرض . ثم نصحهم بالابتعاد عن المعاصى ، والتوبة ، وتقوى الله ، وإلا سلب الله عزهم ، وسلط عليهم عدوهم .

وأقام على بيت المقدس ، يزيد بن أبى سفيان على أن يأتمر بأوامر أبى عبيدة. وانتدب للصلاة من بعده سلامة بن قيصر . وأمر على فلسطين رجلين : فجعل (علقمة بن حكيم) على نصفها الشمالى وأنزله الرملة . و (علقمة بن مجزر) على نصفها الجنوبى وأنزله إيلياء . فنزل كل منهما فى عمله مع جنده .

ثم عاد إلى الحجاز .

القدس وبنو أمية

ضمت القدس إلى الشام (٢١ هـ — ٦٤١ م) وخضعت لحكم معاوية ابن أبى سفيان[1] مؤسس الدولة الأموية . فأقام عليها سلامة (وفى قول سلام) ابن قيصر . وكان هذا يقيم فى نفس المكان الذى كان يقوم عليه قصر هيرودس فى عهد الرومان .

---

(١) كان على عهد النبى كاتب الوحى . وكان أحد قادة الجيش الذى أرسله أبو بكر الصديق لفتح الشام . حضر فتح بيت المقدس . وكان من شهود (العهدة العمرية) التى أعطاها عمر بن الخطاب لأهل إيلياء . ولقد ولاه عمر بعد ذلك الشام . كما ولاه عثمان نفس العمل بعد مقتل عمر . ولما مات عبد الرحمن ابن علقمة الكنانى ، وكان على فلسطين ، ضم عمله إلى معاوية (٢١ هـ — ٦٤١ م) ثم صار الحاكم المطلق على الشام والبلقاء والأردن وفلسطين ومصر والعراق والحجاز . وبويع بالخلافة سنة ٤١ هـ — ٦٦١ م.

كان للقدس يومئذ[١] سور ، وكان على ذلك السور ٨٤ برجاً ، وله ستة أبواب ، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها ويخرجون : واحد غربى المدينة ، والثانى شرقيها ، والثالث فى الشمال . وكان يؤم المدينة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر أيلول من كل سنة ، جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان بقصد التجارة . ويقضى هؤلاء فيها بضعة أيام . وكان فيها مسجد مربع الأضلاع ، بنى من حجارة وأعمدة ضخمة نقلت من الأطلال المجاورة . وهو يتسع لثلاثة آلاف من المصلين . والمعتقد أن هذا هو المسجد الذى بناه عمر ابن الخطاب . وكان جبل الزيتون مغطى بأشجار العنب والزيتون . وكان سكان بيت المقدس يومئذ يأتون بالأخشاب التى يحتاجون إليها من أجل البناء والوقود ، تنقل على الجمال من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة أميال من الخليل إلى الشمال .

وقد اعتلى منصة الحكم بعد وفاة معاوية ابنه يزيد (٦٨١ م) . ثم معاوية ابن يزيد (٦٨٤ م) . وفى عهده بايع أهل الحجاز عبد الله بن الزبير بالخلافة . وانضم إليهم بعد قليل سكان مصر . ولما تولى خلافة الشام مروان بن الحكم (٦٨٤ م) . احتزب الفريقان . وانقسمت البلاد إلى قسمين : قيس ويمن . وكاد نائل بن قيس الجذامى بفلسطين يميل إلى الزبير ، لولا أن أسرع مروان إلى محاربته . وتغلب عليه . وتمكن مروان بعد قليل من تثبيت حكمه فى مصر والشام .

ثم تولى الحكم عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ — ٦٨٤ م) . وكان والياً على فلسطين ، فى عهده ، رجل يدعى منصور .

---

(١) The Pilgrimage of Arculfus by Rev. James Rose Macpherson B.D.

وفى زمن عبد الملك بن مروان بنى المسجدان[١] : الصخرة والأقصى . وهما من أعظم آثار بنى أمية فى فلسطين . لا ، بل إنهما من مفاخر العرب فى الشرق كله . ويقول المؤرخون[٢] إن عبد الملك أراد أن يصرف الناس عن التفكير بالسفر إلى الحجاز (وكان ابن الزبير قد ثار ضده فيها وأعلن استقلاله) وأن يشغلهم عن الكعبة ببناء هذا الأثر العظيم .

ومن آثاره أنه عبد فى هذه البلاد طرقاً عديدة منها : طريق القدس — الشام ، وطريق القدس — الرملة . ووضع فى مواضع معينة حجارة نقش عليها اسم الذى أمر بتعمير الطريق ، والمسافة بين ذلك الموضع ودمشق مقر الخلافة . وكانت هذه تقاس بالأميال .

قال مجير الدين فى كتابه (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) إن عبد الملك كان يثق بالنصارى ، إلى درجة أنه استخدمهم فى المسجد الأقصى وسمح لهم بتوارث الخدمة فيه .

بعد عبد الملك بويع بالخلافة ابنه الوليد (٧٠٥ م) وعلى عهده تم بناء المسجد الأقصى . حتى لقد قيل إنه هو الذى بناه . وبلغ بنو أمية على عهده أقصى درجات العز . وشمل ملكه بلاد الترك والروم والهند . وفتح موسى بن نصير باسمه الأندلس .

ولقد أحب الوليد بيت المقدس . وقيل إنه تقبل مبايعة الناس وهو على سطح الصخرة . وكان ينوى أن يتخذها مقراً للخلافة . بيد أنه عامل المسيحيين معاملة

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن هذين المسجدين فى موضع آخر من هذا الكتاب وفى كتابنا (تاريخ الحرم القدسى) . طبع فى مطبعة دار الأيتام الإسلامية بالقدس عام ١٩٤٧ م ، وفى الترجمة الإنكليزية التى نشرناها بعنوان The Dome of the Rock وقد طبعت فى المطبعة التجارية بالقدس عام ١٩٥١ .

(٢) أول من قال هذا القول هو الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى (٨٧٤ م) وتبعه كثيرون منهم المرحوم محمد كرد على فى كتابه (خطط الشام) ج ١ ص ١٤٩ .

قاسية[١] . لأنهم لم يوافقوه فى خطته التى اختطها لمهاجمة القسطنطينية .

بعد وفاة الوليد تولى الملك أخوه سليمان (٧١٤ م) . ولقد أحب هذا فلسطين وخاصة الرملة . وكان والياً عليها عند ما جاءه الخبر بوفاة أخيه الوليد . وقد بايعه الناس وهو على سطح الصخرة . وكان يحب الجلوس فى قبة السلسلة . ومن حوله الناس على الكراسى والوسائد وإلى جانبه الأموال وكتاب الدواوين . وقيل إنه كان ينوى أن يتخذ القدس أو الرملة عاصمة لملكه .

ومن بعده تولى الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ م) . ومن أعماله أنه لما أحس بنية اليهود ببيت المقدس أخرجهم منها .

ولم يجر فى القدس أو فى فلسطين ما يستحق الذكر على عهد يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ م) وأخيه هشام (٧٢٤ م) والوليد بن يزيد (٧٤٣ م) ويزيد بن الوليد (٧٤٤ م) وإبراهيم بن الوليد (٧٤٤ م) ومروان بن محمد (٧٤٤ م) سوى أن أهل فلسطين تآمروا فى زمن يزيد بن الوليد على أميرهم ، فقتلوه .

وفى زمن مروان بن محمد ، وهو آخر الخلفاء الأمويين ، ساءت أحوال الدولة وانتشر الفساد فى جميع أنحاء البلاد . وثار على الحكم الأموى الحكم ابن ضبعان بن روح بن زنباع زعيم فلسطين فى ذلك الحين .

وثار أيضاً أبو العباس الهاشمى . فبايعه أهل العراق وخراسان . فاشتد ساعده . وجمع جيشاً حارب به جيش مروان . فتغلب عليه . وهرب مروان إلى مصر ، فلحقه ، وقتله[٢] . وبهذا قضى على الدولة الأموية قضاء تاماً (١٣٢ هـ — ٧٥٠ م) .

---

(١) (تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) خليل إبراهيم قزاقيا ص ٥٨ .
(٢) كتاب (التنبيه والأشراف) المسعودى . ص ٣٢٩ .

القدس وبنو العباس

(٧٥٠ م)

أعلن الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع خضوع فلسطين لحكم العباسيين (٧٥٠ م) . فجاء إليها القائد العباسى صالح بن على عم السفاح فى خمسين ألف مقاتل ، واحتلها ؛ وألقى القبض على من كان فيها من زعماء الأمويين ، وخيارهم ؛ وعددهم ثلاثة وثمانون ؛ وأرسلهم إلى ابن أخيه السفاح ، فقتلهم(١) .

بعد السفاح (أبو العباس عبد الله بن محمد) تولى الخلافة أبو جعفر المنصور (٧٥٤ م) وأمر هذا محمداً بن الأشعث أن يخرج عمال صالح بن على من الأردن والبلقاء وفلسطين . فأخرجهم منها . وهبط أبو جعفر المنصور بعد ذلك بيت المقدس ، وكان المسجد الأقصى قد أصيب بخراب شديد إثر زلزال حدث عام ٧٤٧ م . ولم يكن لديه من المال ما يكفى لتعميره ، فأمر بنزع صفائح الذهب والفضة التى على الأبواب ، فضربت دنانير . وأنفقت على تعمير المسجد الأقصى . فتمت عمارته عام ٧٧١ م .

وبعد ثلاث سنين حدث زلزال آخر (٧٧٤ م) أضر بالمسجد من جديد . وكان الضرر فى هذه المرة بالغاً . وكان على كرسى الخلافة محمد المهدى بن المنصور (٧٧٥ م) . وعند ما زار المهدى القدس عام ٧٨٠ م . أمر بتعمير ما خربه الزلزال . ولم يكن فى خزانة الدولة من المال ما يكفى لذلك . فكتب المهدى إلى عماله فى جميع أنحاء المملكة ، فلبى هؤلاء نداءه ، وعمر المسجد .

ومما تم على عهده أنه أمر بإبعاد البطريرك الأورشليمى إلياس الثالث إلى

---

(١) خطط الشام لمحمد كردعلى ج ١ ص ١٧٥ .

بلاد الفرس ، وأمر بأن يسكن المسيحيون فى حى واحد من أحياء القدس ، وأن تحصل منهم فدية .

لم تذكر القدس فى زمن الخليفة العباسى موسى الهادى (٧٨٥ م) . وإنما ذكرت كثيراً فى عهد أخيه هارون الرشيد (٧٨٦ م) . ولا بدع فقد بلغت دولة العرب فى أيامه أوج العز والمجد ، وقد عامل النصارى أحسن معاملة . فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث تقوم على آثارها كنيسة الدباغة . وفى سنة ٧٩٦ م أهدى شارلمان ساعة وفيلا وأقمشة نفيسة . وأخذ على نفسه حماية الحجاج المسيحيين الذين يفدون لزيارة بيت المقدس وقابله شارلمان بالمثل . فراح يرسل ، فى كل عام ، وفداً إلى القدس يحمل الهدايا إلى الخليفة والأموال لفقراء المسلمين . وعاد الوفد مرة حاملا معه مفاتيح القيامة والقبر المقدس .

واعتلى كرسى الخلافة بعد الرشيد ولده الأمين (٨٠٩ م) ثم جاء المأمون (٨١٣ م) فجدد هذا عمارة الصخرة . وعلى عهده زار الإمام محمد بن إدريس الشافعى بيت المقدس . كما زاره عدد كبير من العلماء وأهل الفضل . واتسعت مملكته . وبسبب هذا الاتساع أصبح الناس لا يعبأون إلا قليلا بالأوامر التى تصدر إليهم من بغداد ، وتمرد العمال .

وما كاد المأمون ينتقل إلى دار البقاء (٨٣٣ م) حتى دب الانقسام فى مملكته المترامية الأطراف .

وفى عهد أخيه المعتصم بالله بن الرشيد بدأ تقهقر الدولة العباسية . إذ كان المعتصم أمياً ، وكان جاهلا . وهو أول من جند الأتراك واستعان بهم فى الحرب . وقطع العطاء عن العرب . وراح بنو العباس من بعده يرقون مواليهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير . ولم ينقض على ذلك وقت طويل حتى أصبحوا هم (أى الخلفاء) آلات بأيدى مواليهم .

وبلغ الخصام بين قيس ويمن الذروة على عهد الواثق بالله هارون أبى جعفر (٨٤٢ م) . وثار المبرقع (تميم اللخمى) من زعماء فلسطين ، فخرج على العباسيين . ودعا لنفسه ، فتبعه خلق كثير . ولكن القائد العباسى عاد ، فتغلب عليه .

ولما توفى الواثق بالله بويع أخوه جعفر بن المعتصم (٨٤٧ م) ولقب بالمتوكل على الله . وقسم هذا مملكته ، على عهده ، بين أولاده : فكانت فلسطين والأردن وحمص ودمشق من نصيب ولده المؤيد ، وخراسان وطبرستان وفارس وأرمينيا وأذربيجان من نصيب ولده المعتز ، وأفريقية والمغرب وسوريا وما بين النهرين والحجاز واليمن وحضرموت والبحرين من نصيب ولده المنتصر .

لم تذكر القدس فى عهد المنتصر بن المتوكل على الله (٨٦١ م) . والمستعين بالله (٨٦٢ م) . والمعتز بالله (٨٦٦ م) .

وكل ما يجدر بنا ذكره عن ذلك العهد أن دسائس الأتراك كثرت فى بغداد مقر الخلافة إلى درجة أنهم أوعزوا إلى المعتز أن يتنازل عن الخلافة . ففعل ، وأودعوه السجن ، ثم قطعوا عنه الغذاء ، فمات جوعاً .

وفى عهده استولى عيسى بن الشيخ بن سليل الشيبانى على الرملة . ثم استولى على فلسطين جميعها . وتغلب على دمشق وأعمالها . وامتنع عن حمل المال إلى العراق .

وفى عهد ابن عمه المهتدى بالله بن الواثق (٨٦٩ م) اضطربت الأمور ببغداد ، وساد فى فلسطين أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيبانى[1] ، فتقلد جندى فلسطين والأردن .

ومات المهتدى بالله ذبحاً . فبويع بالخلافة من بعده المعتمد على الله بن المتوكل الثالث (٨٧٠ م) . وقد بايعه الجميع ، إلا ابن شيخ زعيم فلسطين .

---

(١) (تاريخ مصر الحديث) لجرجى زيدان . ج ١

فإنه لم يدع إليه ، ولم يبايعه . فبعث إليه بتقليد أرمينيا فوق ما معه من بلاد الشام. فدعا له وبايعه . ولكن الفريقين عادا فاقتتلا . وحرض الخليفة العباسى قائد القوات المصرية أحمد بن طولون — وكانت مصر تدين بالطاعة يومئذ إلى بغداد — على ابن شيخ . فساق عليه جيشاً كبيراً . وقبل أن يصل ابن طولون إلى فلسطين ، استبدله الخليفة بـ (أماجور التركى) . وأتم هذا مهمة سلفه . فقاتل ابن شيخ وقومه ، وتغلب عليهم . ولحق ابن شيخ بأرمينيا ، وتقلد أماجور أعمال الشام كلها .

لم تذكر القدس فى عهد المعتضد بالله (٨٩٢ م) . لا ولا فى عهد ابنه المكتفى بالله (٩٠٤ م) . واستعاد هذا سلطة أجداده العباسيين ، فسادت كلمتهم فى مصر والشام .

بعد المكتفى بويع أخوه جعفر المقتدر بالله (٩٠٨ م) .

ولما قتل المقتدر بويع أخوه القاهر بالله (٩٣٢ م) . فولى هذا على مصر أبا بكر محمد بن طغج . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر والشام مدة من الزمن وعرفت (الدولة الإخشيدية) .

وقبع الخلفاء العباسيون بعد ذلك التاريخ فى قصورهم . واقتصرت سلطتهم على الشؤون الدينية . ومكثوا على تلك الحال إلى أن زحف هولاكو على بغداد (١٢٥٧م) وقضى على الخلافة العباسية . فغادروها إلى مصر . حيث عاش منهم خمسة عشر خليفة ، كان آخرهم محمد المتوكل على الله الذى تنازل عن الخلافة الدينية إلى السلطان سليم العثمانى (١٥١٧) .

زار القدس ، خلال السنين الأخيرة من العهد العباسى العالم المعروف (برنارد الحكيم) . زارها بعد أن نال رضى البابا فى رومة . ووصفها فقال :

« إن المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . وإن الأمن العام مستتب للغاية حتى إن المسافر ليلا يفرض عليه أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته . وإلا

زج فى السجن حتى يحقق فى أمره . وإذا سافرت من بلد إلى بلد ونفق جمل أو حمارى وتركت أمتعتى مكانها ، وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شىء على حاله لم تمسه يد » .

ووصف برنارد الحكيم النزل الذى نزل فيه ، وهو معد للحجاج الذين يتكلمون اللغة الرومانية . فقال إنه النزل الذى أسسه الملك شارلمان . وبجانبه سوق يترتب على الشخص الذى يعمل فيه أن ينقد المحتسب الذى يناظره قطعتين من الذهب كل سنة .

ذلك كان فى عام ٨٧٠ للميلاد .

القدس وبنو طولون

(٨٧٨ م)

دخلت القدس فى حكم ابن طولون[1] عام ٨٧٨ للميلاد . فوطد فى ذلك العام سلطانه فى الشام ، بعد أن كان قد وطد سلطانه فى مصر . وكان قبل ذلك قائداً عاماً للجيوش المصرية ، يأتمر بأوامر الخلفاء العباسيين ببغداد .

لا نعلم عن أعمال ابن طولون فى القدس سوى أن النصارى قاسوا على عهده ، وأنه حظر عليهم أن يلبسوا الدرع إلا مرفوعاً من قبل ومن خلف ، وأنه حرم عليهم ركوب الخيل .

---

(١) ينتمى إلى إحدى القبائل التى تتألف منها تركستان . أسره ابن أسد الصياد فى إحدى الغزوات التى قام بها . وأرسله إلى بلاط الخليفة ببغداد . فأعجب به المأمون وألحقه بحاشيته . وراح يرقيه إلى أن جعله رئيس حرسه . واستفاد ابن طولون من الضعف الذى دب بعدئذ فى صفوف العباسيين . فتولى قيادة الجيش . وسيطر على البلاد . فأسس الدولة الطولونية . (جرجى زيدان ج ١ ص ٦٤٣) .

واقتتل بنو لخم وبنو جذام من القبائل الفلسطينية على عهده قتالا شديداً .

ولما مات ابن طولون تولى الحكم ولده خمارويه (٨٨٣ م) . وعمل هذا على توطيد صلاته بالخليفة فى بغداد ، فأرسل إليه وفداً يحمل الهدايا ، والخراج ، ولما قتل خمارويه تولى ابنه (جيش) الملقب بأبى العساكر . ولكن ، لا الشام قبلته ، ولا مصر . بل ثار الجميع عليه ، وقتلوه . وأقام الثوار من بعده أخاه (هارون) ٨٩٦ م . وثبته الخليفة المعتضد على مصر .

وهارون أيضاً مات قتلا (٩٠٤ م) . فتسلم الأمر من بعده محمد بن سليمان الذى أرسله الخليفة المكتفى بالله إلى الشام على رأس جيش ليتملكها . وقد امتلكها وامتلك مصر من بعدها . وأعاد إلى الخليفة العباسى سلطته السابقة .

وهكذا انتهى حكم الدولة الطولونية لا فى القدس وحدها ، بل وفى مصر والشام . (٩٠٥ م) .

لم تكن القدس فى عهد هذه الدولة من الأهمية بمكان . فلم تذكر إلا قليلا . وما كان الناس ليقصدوها إلا لغايات دينية .

القدس وبنو الإخشيد

(٩٣٨ م)

دخلت القدس فى حكم الدولة الإخشيدية عندما أقام الخليفة العباسى القاهر بالله ابن المعتضد ، محمد بن طغج[1] ، فولاه الحكم فى مصر والشام ،

---

(١) إنه محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فورى بن خاقان . نزل جده جف هذه البلاد على عهد المعتصم بالله بن هارون الرشيد . ودخل أبوه طغج فى خدمة خمارويه بن أحمد بن طولون . فولاه دمشق وتوفى هو (أى محمد بن طغج) مصر من لدن الخليفة العباسى القاهر بالله (٩٣٢ م) . ثم ولاه — كما قلنا — مصر والشام (٩٣٨م) .

ولقب هذا بالإخشيد (٣٢٧ هـ — ٩٣٨ م) .

وقامت ، بعد ذلك بعام واحد ، حرب بين الإخشيديين وبين الأمير محمد بن رائق صاحب فلسطين . انتهت بالصلح على أن تكون البلاد من الرملة إلى التخوم المصرية للإخشيديين وباقى الشام لأمير الأمراء محمد بن رائق[1] ، وأن يحمل الإخشيد إلى ابن رائق فى كل سنة مئة وأربعين ألف دينار تعويضاً عن الرملة .

ولما قتل محمد بن رائق[2] سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م . استرجع محمد الإخشيد البلاد التى كان قد تنازل عنها لابن رائق . وبعد ذلك بسنتين تولى إمارة الحجاز فسادت كلمته فى مصر والشام وفلسطين والأردن والحجاز .

مات الإخشيد فى دمشق ، ودفن فى القدس (٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م) . وتولى الأمر من بعده أبو القاسم محمد الملقب بـ (أنوجور) وعلى عهده زار القدس السائح الفارسى المشهور ، ناصرى خسرو . ووصفها فى كتابه (سفر نامة)[3]

ومما جاء فيها : « أنه كان فى القدس يومئذ عشرون ألف نسمة . وأن فيها أسواقاً جميلة وعالية . وأن أرضها مرصوفة بالحجارة . وأنه يوجد على حافة سهل معروف بالساهرة قرافة عظيمة فيها مقابر كثير من الصالحين » .

ولما مات أنوجور بن الإخشيد (٩٦٠ م) حمل الى القدس ، ودفن بها عند أبيه .

وتولى الملك من بعده أخوه على الملقب بأبى الحسن . وكان أمره بيد كافور مدبر مملكته . ولما مات (٩٦٥ م) حمل إلى القدس ، ودفن فيها إلى جانب أبيه الإخشيد وأخيه أنوجور .

---

(١) جرجى زيدان ج ١ ص ١٨٥ .
(٢) قتله الحمدانيون بالموصل .
(٣) رحلة وقعت حوادثها بين ٩٥٨ و ١٠٥٢ م .

وبهذا انفرد كافور بالحكم ، ولقب بالإخشيدى ، وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز والثغور .

ولما توفى كافور (٩٦٦ م) دفن فى القدس[١] . ووقع الخلاف ، إثر وفاته ، بين الإخشيديين . إذ راح كل واحد منهم يدعى الإمارة لنفسه . فاستولى جوهر الصقلى على البلاد ، وراح يخطب فيها باسم المعز القائد الفاطمى .

لم تذكر القدس على عهد الإخشيديين إلا قليلا . ولم تكن يومئذ ذات أهمية ؛ لا من الناحية التجارية ، ولا من الناحية الحربية . وما كانت تقصد إلا لغايات دينية . وكانت القدس يومئذ دون الرملة من حيث الحجم والأهمية .

كان فى القدس يومئذ مسجد ليس فى الإسلام أكبر منه[٢]. ولم يكن فيها ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع . ويزرع فى جبالها وسهولها أشجار الزيتون والتين والجميز والعنب وسائر الفواكه . . .

وكان على القدس ، فى عهد كافور ، وال يعرف بمحمد بن إسماعيل الصنهاجى . ويذكر عنه أن أتباعه أحرقوا كنيسة القيامة ، فسقطت قبتها . ونهبوا كنيسة صهيون وأحرقوها . وقال ابن بطريق إن لليهود أصابع فى هذه الحوادث وإنهم هدموا وخربوا أكثر مما هدم الوالى وأتباعه وخربوا .

القدس الفاطمية

(٩٦٦ م)

استولى جوهر الصقلى ، قائد المعز الفاطمى ، على هذه البلاد (٩٦٦ م)

---

(١) (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ١٠ .

(٢) (مسالك الممالك) ص ٥٦ (طبع ليدن ١٨٧٠) .

إثر الخلاف الذى دب فى صفوف الإخشيديين بعد موت كافور ، ثم أقام الخطبة للمعز ، وأصبحت القدس فاطمية (٩٦٩ م) وكان فيها يومئذ عشرون ألفاً من السكان جلهم من الشيعة . وكانت مشهورة بخصب تربتها ، وبزيتها وزيتونها وصابونها وتينها وقطنها وعنبها وزبيبها ، وتفاحها وخروبها . وأما من حيث الأهمية السياسية فكانت بالدرجة الثانية بعد الرملة .

وإليك أسماء الخلفاء الفاطميين الذين كان لهم شأن فيها :

العزيز بن المعز (٩٧٥ م) . وعلى عهده . قامت حروب بين المغاربة والقرامطة ، وبينهم وبين طى وسائر عرب فلسطين . وكان هؤلاء بقيادة (مفرج ابن الجراح) أمير بنى طيئ ولكن الغلبة كانت للفاطميين . وكان قائدهم تركياً يدعى (بلتكين) .

وأقام العزيز على ولاية فلسطين وزيراً قبطياً[1] هو الشيخ أبو اليمن قزمان ابن مينا الكاتب . وسكن هذا فى دير السلطان من أملاك القبط . ولما اقتتلت جيوش الشام ومصر هرب قزمان آخذاً معه أموال الدولة ، وقد بلغت يومئذ مئتى ألف دينار .

المنصور بن عبد العزيز الملقب الحاكم بأمر الله (٩٩٦ م) . فقد اجترم هذا فى بادئ الأمر النصارى . ثم راح يحتقرهم . وأمر بهدم كنيستهم (القيامة) . وأرغمهم على لبس السواد . ومنعهم من الاحتفال بعيد الشعانين . ثم رجع يحترمهم . فسمح لهم بتعمير الكنيسة . لا ، بل قيل إنه عمرها على نفقته . وقد رد إليهم أديرتهم وكنائسهم . وأما اليهود فقد اضطهدهم . وظل يضطهدهم إلى أن مات .

---

(١) (تاريخ الكرسى الأورشليمى للأقباط الأرثوذكس) للشماس كامل صالح نخلة الإسكندرى وهو مخطوط .

(٢) (النجوم الزاهرة) ج ٥ ص ٨١ .

وفى زمنه ثار المفرج الطائى فى فلسطين (٩٦٦ م) . ولكن الحاكم بأمر الله تغلب عليه . وقام بعدئذ حسان بن المفرج طالباً ثأر أبيه . فامتلك الرملة . إلا أنه عاد فاستكان . وخضع لسلطان الفاطميين .

الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٠ م) . إنه ابن الحاكم . تنفس النصارى الصعداء على عهده . وسمح للذين غيروا معتقدهم على عهد أبيه أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم . وأعيد بناء الكنيسة المهدمة . وشرع فى بناء سور القدس . وحدث زلزال كبير على عهده ، كاد يودى بقبة المسجد الأقصى . لولا أنه أى (الظاهر) ركض لتعميرها . فجاءت أحسن مما كانت عليه من قبل .

المستنصر بالله (١٠٣٦ م) . إنه ابن الظاهر . على عهده اتسع سلطان الفاطميين . فامتد من المغرب إلى خراسان وفارس . وعلى عهده أيضاً انثلم سور القدس . وانشقت الصخرة .

وقويت شوكة الأتراك ، وراحت البلاد نهباً مقسماً بينهم وبين العبيد بسبب ضعفه .

ومن الأمراء الذين علت كلمتهم فى عهده الأمير بدر الدين الجمالى . والأمير آتسز بن أوق الخوارزمى . وقد استولى هذا على بيت المقدس (١٠٧٠ م) وباستيلائه دالت دولة الفاطميين عن هذه البلاد .

من المؤسسات الفاطمية فى بيت المقدس (البيمارستان) وهو أول مستشفى أسس فيها . وكان ينفق عليه مبالغ طائلة تأتى عن طريق البر والإحسان . وأطباؤه يتقاضون راتباً مقطوعاً . و (دار العلم)[1] وهى فرع لدار الحكمة التى أسست فى مصر عام ١٠٠٤ للميلاد .

إن أحسن وصف للقدس فى العهد الفاطمى تجده فيما كتبه المقدسى[2].

---

(١) (المعاهد المصرية فى بيت المقدس) لأحمد سامح الخالدى ص ٤ .

(٢) (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ١٦٥ .

وإنّا لنقتطف منه الأوصاف التالية :

« بيت المقدس . ليس فى مدائن الكور أكبر منها . . . ليست شديدة البرد ، وليس بها حر ، وقلما يقع بها ثلج . . . تلك صفة الجنة . . . بنيانها حجر ، لا ترى أحسن منه . ولا أتقن من بنائها . . . ولا أعف من أهلها . . . ولا أطيب من العيش بها . . . ولا أنظف من أسواقها . . . ولا أكبر من مسجدها . . . ولا أكثر من مشاهدها .

عنبها خطير . . . وليس لمعتقها نظير . . . وفيها كل حاذق وطبيب . . . وإليها قلب كل لبيب . . . ولا تخلو كل يوم من غريب . . . »

« إنها أطيب من مصر . . . وأجل . . . وأفضل . . . وأكبر . . . جمعت الدنيا والآخرة . . . ومع ذلك فإن لها عيوباً عدة . منها ما جاء عنها فى التوراة : إنها طشت من ذهب ، ملىء بالعقارب . » حاماتها قذرة . . . قليلة العلماء . . . كثيرة النصارى وفيهم جفاء . . . ضرائب ثقال على ما يباع . . . ليس للمظلوم فيها أنصار . . . والمستور فيها مهموم والغنى محسود . . . والفقيه مهجور . . . والأديب غير مشهود . . . »

وهناك وصف آخر لمدينة القدس فى زمن الفاطميين . نجده فى (سفرنامة) للسائح المشهور (ناصرى خسرو) . فقد هبطها هذا عام ١٠٤٧ م . ووصفها وصفاً مسهباً نكتفى منه باقتباس الكلمات التالية :

« يحج السوريون وسكان البلاد المجاورة للقدس عند ما لا تتيسر لهم وسائط الحج إلى مكة ، ويشبعون فيها رغباتهم الدينية . فيضحون فيها الضحايا ، ويصلون ، ويتقربون إلى الله بجميع أنواع الصلاة والعبادة . ويصل عدد الحجيج فى بعض الأعوام إلى عشرين ألفاً . وكثيراً ما يأتى هؤلاء معهم بأطفالهم ليختنوهم بين جدرانها وبالقرب من مساجدها .

« مزروعة زرعاً جيداً . ينبت فيها القمح والتين والزيتون . كما ينبت فيها أنواع كثيرة من الأشجار .

أسعارها معتدلة ، زيتها كثير ، كثير من رؤسائها يملك الواحد منهم خمسين ألف من (يقابل ٤٢٠٠ تنكة) من زيت الزيتون . يحفظ الزيت فى الآبار والأحواض . ويصدر إلى خارج البلاد . ويستعملون القار المجموع من مياه البحر الميت فى طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان . ويستعمله الصيادلة من أجل صيانة العقاقير من الحشرات .

« يحيط بالمدينة سور منيع ، مبنى بالحجارة . . وللسور أبواب من حديد .. يقطن فيها عشرون ألفاً من السكان ، بينهم صناع كثيرون . ولكل صنعة سوق خاصة بها . . . »

القدس والأتراك السلجوقيون

(١٠٧٢ م)

استولى (ألب آرسلان)[1] على بيت المقدس فى ١٠٧٢ م . أخذها من الفاطميين . وبهذا دخلت القدس فى حوزة الأتراك السلجوقيين . وكان ملكهم يومئذ يمتد من الصين شرقاً إلى أقصى اليمن فى الجنوب .

ولما مات ألب آرسلان تولى الملك ولده (محمد ملك شاه) ، ولقب

(١) ألب أرسلان محمد بن جغرى بن ميكائيل بن سلجوق . والسلجوقيون أخلاط من الترك . أول من دخل منهم بغداد طغرل بك أخو جغرى بك (١٠٥٥ م) . وكان ذلك على عهد الخليفة العباسى القائم بأمر الله . وهو (أى طغرل بك) الذى أزال دولة بنى بويه . ولما توفى تولى الملك من بعده ابن أخيه محمد ألب أرسلان .

بالسلطان العادل . وعلى عهده ثار المقدسيون على حاكمهم (١٠٧٧ م) . فأرسل عليهم جيشاً بقيادة قائده (آتسز بن أوق) الخوارزمى . فحاصر هذا المدينة ، وكان فيها عساكر مصر ففتحها عنوة ، ونهبها ، وقتل أهلها ، فلم ينج منهم أحد . لا ، ولا الذين احتموا بالمسجد الأقصى . . . وفى قول آخر[1] إنه قتل من سكانها ثلاثة آلاف نسمة ، وإنه سبى النساء واستعبد الأحرار . . . وساد الجوع فى المدينة . وانتشر الغلاء . فبيعت غرارة القمح بادئ ذى بدء بعشرين ديناراً ، ثم صعدت إلى مئتى دينار .

ومن عمال ملك شاه الذين تولوا إدارة بيت المقدس الأمير (أرتق بن أكسك)[2] التركمانى . فقد استولى هذا على بيت المقدس بحد السيف ، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الأرتقيين[3] (١٠٧٧ م) .

القدس فى عهد الأرتقيين

(١٠٧٧ م)

قلنا فى نهاية الفصل السابق إن الأمير (أرتق بن أكسك[4]) التركمانى استولى على بيت المقدس بحد السيف (١٠٧٧ م) ، وأنه أسس فيها دولة عرفت بدولة الأرتقيين .

---

(١) (تاريخ غزة) للمؤلف

(٢) (دائرة معارف وجدى) ج ١ ص ١٤٦

(٣) (تاريخ مصر الحديث) لجرجى زيدان ج ١ ص ٢٣٣ .

(٤) كان زعيماً للقبائل التركمانية التى أخرجها السلجوقيون من خوارزم بحر قزوين وساقوهم إلى سوريا ، فانتشروا فيها وفى فلسطين .

وفى سنة ١٠٩١ م توفى أرتق عن ولدين : (إيلغازى) و (سقمان) . فحكما معاً فى بيت المقدس وسائر فلسطين . وبعد ذلك بأربع سنين (١٠٩٥ م) جاء الأفضل أمير الجيوش من مصر إلى القدس يبغى تخليصها من الأرتقيين . فحاصرها ونصب عليها المنجانيق ، وقاتلهم فيها أربعين يوماً .

وتواطأ سكان بيت المقدس مع الأفضل بعد أن أمنهم . ففتحوا له أحد الأبواب (١٠٩٦ م) . فدخل منه . وخرج سقمان وأخوه إيلغازى من باب آخر . وأظهر المقدسيون بعدئذ الطاعة لمصر . وكانت هذه خاضعة لسلطان الأتراك السلجوقيين .

وفيما كان النزاع قائماً بين السلجوقيين والفاطميين ، إذ كان الأولون متمسكين بالخلافة العباسية وكان الآخرون يتشيعون للخلافة العلوية ، كان الصليبيون يعدون العدة للزحف صوب القدس . فأخذوها من المسلمين .